الضحك ودرجاته عند شعراء الأغانى
لأبى الفرج الأصفهانى

دكتورة
زينب عبد العزيز العمره
أستاذ الأدب العربى المساعد
آداب بنها ... جامعة الزقازيق

فى كتابه المسمى " فقه اللغة " رتب الثعالبى الضحك مبتدئا بأوله وهو التبسم ، منتهيا بآخره وهو الزهزقة ، يقول :" التبسم أول مراتب الضحك ،ثم الإهلاس وهو إخفاؤه .... ثم الافترار ، والانكلال وهو : الضحك الحسن .. ثم الكتكتة أشد منهما ، ثم القهقهة ، ثم القرقرة ، ثم الكركرة ، ثم الاستغراب ، ثم الطخطخة ، وهى أن يقول : طيخ طيخ ،ثم الإزهاق والزهزقة وهى أنه يذهب الضحك به كل مذهب " (١) وعلى الرغم من أن العبارة الأخيرة مبهمة ، فإنها تغرى بمحاولة معرفة كيف يذهب الضحك بالإنسان كل مذهب ، وبخاصة أن التبسم فى التراث الشعرى القديم كان قليلا ، كلما صعدنا مع شيخنا الثعالبى درجة أعلى من التبسم ازدادت الندرة واختيارى لكتاب الأغانى بصفة خاصة له دلالته ، فموضوعه من ألصق الموضوعات بظاهره الضحك ، كما أن كثيرا من الذين ترجم لهم أبو الفرج من الشخصيات التى تميل إلى الضحك والمرح والفكاهة والسخرية بكافة أشكالها ، كما عنى مصنف الأغانى بجمع كثير من الأخبار والأشعار حول الجوانب غير الجدية فى حياة الذين ترجم لهم ، والذين يتصلون بهم ، فالأغانى سيكون أكبر معرض يعرض فيه الشعراء صورهم المختلفة للتعبير عن الضحك ودرجاته ، وسوف يقدم لنا صورة صادقة عن جانب غاية فى الأهمية من جوانب الشخصية العربية .

وبعد قراءتى للأغانى بأجزائه الخمسة والعشرين أود أن أسجل أن كل افتراضاتى لم تكن صحيحة ، وأن المادة العلمية المجموعة من بين دفتى هذا الكتاب حول الضحك ودرجاته ، وصور التعبير عنه لدى الشعراء لم تكن بالقدر المتوقع أو حتى مايقرب منه . وقبل أن أتهم الأصفهانى ، وأرد قلة هذا التراث إلى ذوقه الخاص واختياراته ، قمت بجولة طويلة بين دواوين الشعر العربى القديم ، فوجدت صدق هذه الظاهرة ، أى ندرة الصور الشعرية المعبرة عن موضوع الضحك ودرجاته لدى الشعراء القدامى جميعا ، مع تباين ضئيل فيما بينهم ، يتعلق بالموضوع الشعرى ، وصلته بالضحك ، وكذلك شخصية كل شاعر ، وعلاقته الاجتماعية والسياسية ، وأخلاقه ، ومهنته ، وكل مايؤثر تأثيرا مباشرا أو غير مباشر على مزاج الشاعر، ومن ثم على ملكته الفنية وقدرته على التعبير عن الأحاسيس المختلفة ، ومن بينها الأحاسيس التى تؤدى إلى الضحك .

والضحك هو ظهور الثنايا من الفرح (٢) ، هذا هو الأصل فيما تدل عليه هذه اللفظة ، ولكن الإحساس بالفرح يختلف من شخص لآخر ، ومن مناسبة لأخرى ، وإظهار علامات الفرح تختلف بين البشر علوا وانخفاضا مما أدى إلى وجود ألفاظ كثيرة تصف الضحك ولا تصف الضاحك ، فإن ظهرت أسنان الضاحك فهذا تبسم وانكلال وافترار وكَشْر واستغراب ، فكل هذه الألفاظ تشير إلى ظهور الأسنان بدرجات متفاوتة .

" يقول الليث : بسم يبسم بسما إذا فتح شفتيه كالْمكاشِر " (٣) وهذا هو أقل الضحك وأحسنه عند العرب ، وكما يقول الزجاج التبسم أكثر ضحك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤) .

أما الافترار فهو ضحك حسن أيضا لأنه لايصاحبه صوت ، إنما تبدو من الأسنان مساحة أكبر قليلا من التبسم ، وفى الحديث فى صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - " ويفتر عن مثل حب الغمام ، أى يَكْشِر إذا تبسم من غير قهقهة " (٥) .

أما الانكلال فهو درجة أعلى فى ظهور الأسنان ، إذ عبر عنه ابن منظور - في الدلالة المجازية - بقوله : " وانكلال الغيم بالبرق : هو قدر مايريك سواد الغيم من بياضه . وانكل السحاب بالبرق إذا ماتبسم بالبرق . " (٦)

والمعنى المجازى يدل على أن الانكلال هو ظهور الأسنان بدرجة أوضح كظهور البرق من بين السحاب .

والاستغراب يعنى أن الرجل يضحك حتى تبدو غروب أسنانه (٧) . على أن الاستغراب فى الضحك يصاحبه صدور صوت عن الضاحك وعندئذ لايكون معنى الفعل أغرب مشيرا إلي درجة ظهور الأسنان فحسب ، ولكنه يشير إلى درجة عاليه من درجات الضحك ، فكأنه من الغرب أى البُعْد ، وفى حديث الحسن : إذا استغرب الرجل ضحكا فى الصلاة أعاد الصلاة (٨) .

وهناك عدة ألفاظ أخرى تشهير - أيضا - إلى درجة الضحك المرتفع ، ولكنها تحاكى صوت الضاحك وهذه الألفاظ فى حقيقة الأمر لاتصف الضحك ولكنها تحكى صوت الضاحك ، فبعض الناس يقهقه عند اشتداد الضحك ، أى يقول : قَهْ قَهْ (٩) ، وبعضهم يكركر فى صوته أو يقرقر ، وهذه كلها أصوات يرددها الإنسان فى جوفه فتخرج على هذه الصورة المحاكية لتلك الألفاظ(١٠) .

وهذه الألفاظ لا تدل على درجة علو صوت الضاحك - لأنها كلها تشير إلي شدة الصوت المصاحب للضحك - ولكنها - كما ذكر - محاكاة للصوت الذى يخرج من الإنسان بغير إرادة منه عند استغراقه فى الضحك .

وقد عاب العرب بعض هذه الأصوات ولم يعيبوا الاستغراق فى الضحك فى حد ذاته ، فقد عدوا الطخطخة أقبح القهقهة ، " وطخطخ الضاحك قال : طيخْ طيخْ " (١١) .

ومن الأصوات المعيبة أيضا ، الزهزقة ، فهى شدة الضحك ، والرجل المهزاق رجل ضحّاك خفيف غير رزين ، أما الأصل فى الهزق فهو شدة صوت الرعد (١٢) .

هذا بالنسبة للأصوات العالية التى تصدر عن الضاحك عند استغراقه فى الضحك ولا حيلة له فيها ، وهناك أصوات أخري منخفضة أو مكتومة ، وقد عبر عن هذا الصوت بالكتكتة نسبة إلي صوت الغليان الصادر عن القدر ، فالكتكتة فى الضحك دون القهقهة ، وقد وصف علماء اللغة هذا الصوت بأنه مثل الحنين (١٣) ، ولكن هذا الوصف ليس دقيقا ، فالحنين اسم للصوت الخارج من الأنف مع ضحك أو بكاء ، فلفظة الحنين لاتشير إلى درجة خفاء الصوت ، ولكنها تشير إلي مخرج الصوت ، " الحنين كالبكاء من الأنف ، والضحك فى الأنف وفى الحديث أنه كان يسمع خنينة فى الصلاة .. وأصل الحنين خروج الصوت من الأنف ، والحنين الضحك إذا أظهره الإنسان فخرج خافيا .. النشيج من الفم والحنين من الأنف ... والحنين سدد فى الخياشيم " (١٤) .

ومن العرض السابق نستطيع أن نقسم الألفاظ التى تدل على درجات الضحك إلي مجموعتين ، الأولى : ظهور الأسنان بدون صوت واللفظة المحورية هنا هى التبسم ، ويندرج تحتها ، أو بعبارة أوضح تأتي معها الألفاظ : أهلس (١٥) ، وكَشَر وافتر وانكل . والثانية : ألفاظ تظهر فيها الأسنان مع صدور صوت من الضاحك يحاكى - غالبا - اللفظة الموضوعة للدلالة على الصوت ، واللفظة المحورية في هذه المجموعة هى الضحك ، وتأتى معها : الكتكتة والحنين والقهقهة والقرقرة والكركرة والطخطخة والاستغراب والاهزاق والزهزقة .

وسوف نرى عند حديثنا عن التراث الشعرى لشعراء الأغانى أن هؤلاء الشعراء لم يستخدموا من هذه الألفاظ الكثيرة سوى اللفظين المحوريين " التبسم والضحك " ، أما بقية الألفاظ فأغلبها لم يستعمل والقليل منها كان استعماله نادرا للغاية ، فشعراء الأغانى لم يعبروا عن الضحك كموضوع وإحساس تعبيرا يتفق مع المنطق والبديهة وهذا يرجع إلي طبيعة الشخصية العربية كما أسفرت عنها هذه الدراسة .

وسوف نتناول الموضوعات التى وردت فيها ألفاظ الضحك ودرجاته كما عبر عنها الشعراء ، بادئين بأهم هذه الموضوعات ، وأكثرها شواهد في هذا المجال .

١ - الغـــزل

وهو أكثر الموضوعات التى حظيت بقدر كبير من الشواهد المبثوثة بين دفتى الأغانى ، ويلاحظ هنا أن الشعراء استخدموا ثلاث كلمات فحسب ، وهى حسب كثرة ورودها التبسم . ثم الضحك ثم الافترار ، وهذا يتفق مع الشخصية العربية التى تعد الإفراط فى المرح والتعبير عن الفرح أمرا معيبا يحط من هيبة الإنسان ويضيع كرامته ، فالشخصية العربية أميل إلي الجهامة والقسوة وكبت المشاعر الإنسانية الطبيعية من فرح وحزن ، فلا يليق بالمرء عندهم أن يظهر شدة الفرح أو شدة الحزن ، ولا يقتصر الأمر على إحساس الرجل فحسب ، بل إن المرأة التى تفرط فى إظهار مشاعر الفرح تعاب من أجل ذلك ، ولهذا فنحن لانرى الشعراء يتجاوزون حدود الضحك إلى درجة أعلى منه ، وفى موضوع من ألصق الموضوعات بالمرح والفرح والسرور ، أو هو بعبارة أخرى من الموضوعات التى تدفع إلى ازدياد حدة الشعور بالفرح ، أعنى الغزل .

بداية أطلق العرب على الفم اسم المبسم - كناية - يقول ابن أبى ربيعة : (١٦)

فإما ترينى على ماعـــزا ... ضعيف القيام شديد السقم
كثير التقلـــب فوق الفرا ... ش ماإن تقل قيامى قدم
بآنســـة طيب نشـــرها ... هضيم الحشا عذبة المبتسم

ويقول الشاعر : (١٧)

ياصاح لو كنت عالما خبرا ... بما يلاقى المحب لم تلمه
لاذنب لى فى مفرط حسن ... أعجبنى دلـــة ومبتســمه

ويقول النابغة الجعـدى : (١٨)

كأن فاهـا إذا تبســم من ... طيـب مشـم وطيب مبتسـم
يسـن بالضـرو من يراقش أو ... هيلان أو ضامــر من العتم

ويقول امرؤ القيس : (١٩)

وثغر أغــر شتيت النبــات ... لذيذ المقبــل والمبتســم

ويقول أبوجلدة اليشكرى : (٢٠)

أغر كأن البدر سـنة وجهــه ... له كفل واف وفـرع ومبسم

ويقول مطيع بن إياس (٢١)

ألا ياظبيــة الــوادى ... وذات الجســد الــراد
وزين المصــر والــدار ... وزين الحـى والنــادى
وذات المبســم العــذب ... وذات المبســم البــادى
أمـا بـالـلـه تـسـتـحـيـب ... ن من خلــة حمــاد

ويقول عمار ذي كبار : (٢٢)

يصبو الحليم لحسن بهجتها ... ويزيـده ألمـا إلى ألــم
تفتر عـن سمطين مـن برد ... متفلـج عن حسـن مبتسم

وكما قيل عن الفم مبسم ومبتسم لأنه مكان الابتسام ، فقد كنى عنه بالضحك .

يقول بشار بن برد :(٢٣)

ولها مضحك كفـر الأقاحـى ... وحديث كالوشى وشى البرود

ويقول اسماعيل بن عمار : (٢٤)

وهاج قلبى منها مضحك حسن ... ولثغة بعد فى زاى وفى سين

ثم ننتقل إلى تعبير الشعراء عن ابتسام المرأة ، وهي درجة للتعبير عن الفرح مستحبة لدى الرجال والنساء على السواء لأنها تحافظ على الوقار وتبعد بصاحبها عن الوصف بالخفة وعدم الرزانة ، وتدل - أيضا - على شدة حياء المرأة ، ويقول عمر بن أبى ربيعة : (٢٥) .

قالت : وعيش أخى ونعمة والدى ... لأنبهن الحى إن لم تخرج

فخرجت خوف يمينها فتبسمت ... فعلمت أن يمينها لم تحرج

ويقول أيضا : (٢٦)

خرجت تأطر فى الثياب كأنها ... أيم يسيب على كثيب أهيلا

رحبت حين رأيتها فتبسمت ... لتحيتى لما رأتنى مقبلا

ويقول ابن ميادة : (٢٧)

جلت إذ جلت عن أهل نجد حميدة ... جلاء غنى لاجلاء فقير

وقالت ومازادت على أن تبسمت ... عذيرك من ذى شيبة وعذيرى

ويقول الشاعر : (٢٨)

لفظ الخدور عليك حورا عينا ... أنسين ماجمع الكناس قطينا

فإذا بسمن فعن كمثل غمامه ... أو أقحوان الرمل بات معينا

والبيت يشير إلى ظهور الأسنان عند الابتسام ، وكذلك قول أعشى همدان : (٢٩)

دار لخود طفلة رودة ... بانت فأمسى حبها عامدى

بيضاء مثل الشمس رقراقة ... تبسم عن ذى أشر بارد

وكقول المتوكل بن عبد الله الكنانى الليثى : (٣٠)

إذا ابتسمت تلألأ ضوء برق ... تهلل فى الدجنة ثم داما

وكقول زهير بن جناب : : (٣١)

ولما رأتنى والطليح تبسمت ... كما انهل أعلى عارض يتألق

وكقول ذى الرمة : (٣٢)

اذا ما امرؤ حاولن أن يقتلنـــه بلا إحنة بين النفوس ولا ذحـــل
تبسمن عن نور الأقاحى فى الثرى وفترن عن أبصار مكحولة نجـــل

ويقول مالك بن الريب : (٣٣)

وتبسم عن نقى اللون عـــذب كمـــا شيف الأقاحـــى بالقطـار

ويقول مانى الموسوس : (٣٤)

ظبية كالهلال لـــو تلحظ الصخـ ر بطـرف لغادرتـــه هشيمـــا
واذا ما تبسمت خـلت ما يبـــ د ومن الثغر لؤلـــؤا منظومـــا

وكقول سوار بن أبى شراعة : (٣٥)

ليس حظى منها سوى النظر الختـل وإنى بـــه لجـــذلان راضـــى
لحظات يقعن فى ساحة القلـــب وقوع السهام فـــى الأعـــراض
وابتسام كالبرق أو هو أخفـــى بين سترى تحـــرز وانقبـــاض

فالشواهد السابقة تشير الى ظهور الأسنان عند التبسم ، وقد لايشير الشاعر الى ذلك ، كقول وضاح اليمن : (٣٦)

إذا قلـت يومـا نولينـى تبسمت وقالت معاذ الله من فعـل ما حـرم
فما نولت حتى تضرعت عندهـا وأعلمتها مارخص الله فى اللمم (٣٧)

ويقول أيضا : (٣٨)

اذا قلت يوما نولينـــى تبسمت وقالت لعمـــر اللـــه لو أنه اقتصد

ويقول حسين بن الضحاك : (٣٩)

فمـــا زلت أبسطه مازحـــا وأفرط فـى اللهـــو حتـــى ابتسم

ويقول كثير عزة : (٤٠)

أشاقك بـرق آخـــر الليل واصب تضمنه فرش الجبـــا فالمســـارب
كما أومضت بالعين ثـــم تبسمت خريع بـــدا منها جبين وحاجـــب

ويقول بن أبى ربيعة : (٤١)

فلما التقينـــا سلمت وتبسمت وقالـــت مقـــال المعـــرض المتجنب
أمن أجل واش كاشح بنميمـــة مشى بيننا صدقته لـــم تكـــذب

ويقول مطيع بن اياس : (٤٢)

فديت مـــن مـــر بنـــا ... يومـــا ولـــم يتكلـــم
وكان فيمـــا خـــلا منـــه ... كلمـــا مـــر سلـــم
وإن رآنـــى حيـــا ... بطرفـــه وتبســـم
لقـــد تبـــدل - فيمـــا ... أظـــن - واللـــه أعلـــم

ويقول ابن أبى الزوائد : (٤٣)

كل بـــلاد إلا لـــه جئت فمـــا ... أبصرت شبها لها - وقد علمـــه -
أنثى مـــن العالمين تشبههـــا ... عابسه هكـــذا ومبتسمـــة

ويقول ابراهيم الموصلى : (٤٤)

وقالوالها هـذا محـلك معرضـا ... فقالت : أرى إعراضه أيسـر الخطب
فما هـــو إلا نظـــرة بتبسم ... فتنشب رجـــلاه ويسقط للجنب

ويقول حاتم الطائى : (٤٥)

يضىء لها البيت الظليل خصاصـه ... إذا هى يومـا حاولت أن تبسمـا

ويقول البحترى : (٤٦)

عـــن أى ثغـــر تبتســم ... وبـــأى كـــف تحتكـــم ؟

ويقول العريان البصرى : (٤٧)

ياعين إمـــا أريتنى سكنـــا ... غضبان يزوى بوجـــه منصـــرف
فمثليه للقلـــب مبتسمـــا ... فى شخص راض علـــى منعطـــف

وقد جاءت صيغة المبالغة من التبسم فى بيت واحد لجميل بثينة وهو قوله : (٤٨)

غراء مبسام كـــأن حديثهـــا ... در تحـــدر نظمـــه منثور

مما يشير الى أن الاقتصاد فى الضحك كان منحى اجتماعيا ، وقيمة من القيم العربية التى يحرصون عليها منذ العصر الجاهلى ، وحتى العصر العباسى الذى عاش فيه الأصفهانى صاحب الأغانى ، وقد تغير المجتمع العربى تغيرا ملحوظا ، وانتقل العرب انتقالات حضارية وثقافية مختلفة عما ألفوه فى مجتمعهم الأول فى شبه الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، فان تحضر المجتمع الحجازى فى العصر الأموى ، وشيوع الغناء والموسيقى . والثراء العريض ،

ووفرة الجوارى والعبيد ، وتقلب العرب فى النعيم والرفاهية ، كل ذلك لم يمنعهم من الاقتصاد فى التعبير عن الإحساس بالفرح والمرح حتى عند شعراء الغزل الصريح مثل عمر بن أبى ربيعة وأقرانه ، فهم لم يستخدموا من الألفاظ الدالة على الضحك ودرجاته سوى التبسم والضحك . نجد هذه الظاهرة - أيضا - عند شعراء العصر العباسى الذى كان قد أصاب من رقة الحضارات الرافدة شيئا كثيرا ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الشعراء لم يتجاوزوا هاتين اللفظتين ، التبسم والضحك إلا فى القليل النادر كما سنرى فى الصفحات التالية بإذن الله ، وهذا يدل على أن الشخصية العربيه لاتميل الى التعبير عن المشاعر الإنسانية وبخاصة الفرح تعبيرا واضحا وصريحا ، بل تحب أن تكبت هذه الأحاسيس لأن إظهارها يقلل من الهيبة عندهم .

ويأتى التعبير عن الضحك فى المرتبة الثانية بعد التبسم ، يقول مجنون بنى عامر : (٤٩)

أيا ريح من أمسى تخلى عقله ... فأصبح مذهوبا به كل مذهب
خليا من الخلان إلا معذرا ... يضاحكنى من كان بهوى تجنبى

ويقول الحارث بن خالد المخزومى : (٥٠)

لاأعتق الله رقى من صبابتكم ... ماضرنى أننى صب بكم قلق
ضحكت عن مرهف الأنياب ذى أشر ... لاقضم فى ثناياه ولا روق

ويقول أعشى همدان : (٥١)

بان الخليط وفاتنى برحيله ... خود إذا ذكرت لقلبك يشغف
تجلو بمسواك الأراك منظما ... عذبا إذا ضحكت تهلل بنطف

ويقول أيضا عندما كرهته زوجته جزلة (٥٠)

وهى بيضاء على منكبها ... قطط جعد وميال سخام
وإذا تضحك تبدى حبيا ... كرضاب المسك فى الراح المدام

ويقول حسين بن الضحاك : (٥٣)

بأبى زور تلفت له ... فتنفست إليه الصعدا
بينما أضحك مسرورا به ... إذ تقطعت عليه كمدا

ويقول أبو النجم العجلى : (٥٤)

تضحك عما لو سقت منه شفا ... من أقحوان بله قطر الندى
أغر يجلو عن غشا العين العشا ... حلو بعينى كل كهل وفتى

ويقول أبو الزناد اليهودي العزمى : (٥٥)

هل تعرف الدار خف ساكنها ... بالحجر فالمستوى إلى ثمد
دار لبهنانة خد لجة ... تضحك عن مثل جامد البرد

ويقول العباس بن الأحنف : (٥٦)

جارية أعجبها حسنها ... فمثلها فى الناس لم يخلق
خبرتها أنى محب لها ... فأقبلت تضحك من منطقى

أما افتعال الضحك من العجب أو من السخرية - فى موضوع الغزل - فقد جاء فى قول عمر بن أبى ربيعة فى موضعين اثنين ، يقول : (٥٧)

فكى رهينته فإن لم تفعلى ... فاعلى على قتل ابن عمك واسلمى
فتضاحكت عجبا وقالت : حقه ... ألا يعلمنا بما لم نعلم
علمى به - والله يغفر ذنبه ... فيما بدا لى ذو هوى متقسم

ويقول أيضا : (٥٨)

أكما ينعتنى تبصرننى ... عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن فى كل عين من تود
حسد حملته من أجلها ... وقد بما كان فى الناس الحسد

كما جمع العرب بين التبسم والضحك ، ففى القرآن الكريم :

" فتبسم ضاحكا من قولها " (٥٩)

ويقول النميرى : (٦٠)

وقالت لجارتها هل رأيت ... إذ أعرض الركب فعل الرجل
وأن نبسمه ضاحكا ... أجد اشتياقا لقلب غزل

ويقول كثير عزة : (٦١)

يحاذرن منى غيرة قد عرفتها ... قديما فما يضحكن إلا تبسما

وفى الغزل أيضا اقترن الضحك بالبكاء ، يقول عكاشة العمى : (٦٢)

ظلت تغنينى وتعطف كفها ... بالعود بين الراح والريحان
فسمعت ما أبكى وأضحك سامعا ... وسكرت من طرب ومن أشجان

ويقول أبو صخر الهذلى : (٦٣)

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر
أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره أمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الزجر

ويقول العباس بن الأحنف : (٦٤)

أريدك بالسلام فأتقيهم ... فأعمد بالسلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكى ليخفى ... فسنى ضاحك والقلب باك

ويقول أيضا : (٦٥)

عدل من الله أبكانى وأضحكها ... فالحمد لله عدل كل ماصنعا
اليوم أبكى على قلبى وأندبه ... قلب ألح عليه الحب فانصدعا

ومحمد بن أمية كان يحب جارية فبيعت فحزن عليها فقال : (٦٦)

ومهما تكن من ضحكة بعد فقدها ... فإنى وإن أظهرتها لحزين

ويقول محمد بن عبد الملك الزيات : (٦٧)

وحبس هواك يقتلنى ... وقتلى لايحل لك
أما ترنى لمكتئب ... إذا ضحك الخلى بكى

أما الافترار فيأتى فى المرتبة الثالثة من حيث وفرة الصور الشعرية المعبرة عن الضحك ودرجاته ، يقول عمر بن أبي ربيعة : (٦٨)

خود إذا قامت إلى خدرها ... قامت فطوف المشى مكساله
تفتر عن ذى أشر بارد ... عذب إذا ما ذيق سلساله

ويقول وضاح اليمن : (٦٩)

علق قلبى ربيب بيت ملوك ... ذات قرطين وعثة الكفل
تفتر عن منطق تضن به ... يجرى رضا باكذائب العسل

ويقول عمار ذى كبار : (٧٠)

يصبو الحليم لحسن بهجتها ... ويزيده ألما إلى ألم
تفتر عن سمطين من برد ... متفلج عن حسن مبتسم

٢ - الوصف

وهو الموضوع الثانى الذى يلى الغزل فى كثرة الشواهد الشعرية التى تعبر عن الضحك ودرجاته . ونلاحظ أن التعبير عن الضحك يفوق التعبير عن الابتسام ، وهذا له دلالة إذ أن الشعراء غالبا يصفون الطبيعة بكل مظاهرها غير البشرية ، فلا يتحرجون من إظهار فرحة الطبيعة وبهجتها ، ولن تعاب الطبيعة كما يعاب الإنسان لديهم بالإفراط فى التعبير عن الفرح، وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يتجاوزوا درجة الضحك إلي درجة أعلى ، حتى وهم يعبرون عن صور الطبيعة غير البشرية ، حية وصامتة ، وسوف نبدأ بالصور المعبرة عن الضحك أولا لأنه هو الأوفر ، يقول حسين بن الضحاك : (٧١) .

ألست ترى الصبح قد أسفرا ... ومبتكرا لغيث قد أمطرا
وأسفرت الأرض عن حلة ... تضاحك بالأحمر الأصفرا

وفى صفة الخمر يقول التيمى : (٧٢

لابد من سكرة على طرب ... لعل روحا يدال من كرب
مغاطنيها صفراء صافية ... تضحك من لؤلؤ على ذهب

وقول الشاعر : (٧٣)

إذا اصطبحت ثلاثا ... وكان عودى نديمى
والكأس تغرب ضحكا ... من كف ظبى رخيم
فما على طريق ... لطارقات الهموم

وفى الأبيات السابقة وصف للكأس التى تغرب ضحكا ، وهذا من الوصف النادر ، إذ أن الإغراب فى الضحك درجة عالية لم يحبوا أن يعبروا عنها ، ولكن موضوع الشاعر هنا لايتعلق بوصف الإنسان ، ولكنه يصف الخمر التى تفور فتصطخب فى الكأس اصطخاب المغرب فى الضحك ، ولذلك لم يجد الشاعر حرجا فى وصفه هذا .

ويقول المعلي الطائى : (٧٤)

باكر صبوحك صبحة النيروز ... واشرب بكأس مترع وبكوز
ضحك الربيع إليك عن نواره ... آس ونسرين ومرما حوز

ويقول خالد الكاتب : (٧٥)

بين صفو الزمان عن كدره ... فى ضحكات الربيع عن زهره (٧٦)
ياسر من رابو ركت من بلد ... بورك فى نبته وفى شجره

ولا نستطيع أن نترك كتاب الأغانى بدون الإشارة إلى الجزء الخامس والعشرين والذى ألحق بهذا المصدر المهم من مصادر الشعر العربي . وهذا الملحق صنفه ابن منظور أبو الفضل جمال الدين ، واحتوى على أخبار أبى نواس ، إذ يظن أن أخبار هذا الشاعر الكبير قد فقدت من نسخ الأغانى ، فليس منطقيا أن يغفل الأصفهانى - عمدا - أخبار أبى نواس ، وبخاصة أنه يقول فى الجزء العشرين : " أخبار أبى نواس وجنان خاصة إذ كانت أخباره قد أفردت خاصة " (٧٧) ، وقد يكون هذا هو السبب الذى جعل دار الكتب العلمية ببيروت والتى قامت بنشر هذه الطبعة التى يعتمد عليها هذا البحث بإلحاق ماصنفه ابن منظور من أخبار أبى نواس ، كمحاولة منهم لاستكمال مافقد من الأغانى ، وإن كنت لاأزعم أن هذا التصرف يعد تصرفا دقيقا من الناشر ، ولكنها - على أى حال - محاولة لسد النقص إلي أن تظهر نسخة كاملة للأغانى الذى صرح مصنفه بأنه أفرد أخبار أبى نواس فى جزء خاص . ولذلك فسوف أضم ماورد بهذا الملحق من شعر أبى نواس معبرا فيه عن الضحك ودرجاته إلى بقية أجزاء الأغانى المعتبرة .

يقول أبو نواس : (٧٨)

فلم نزل فى صباح السبت نأخذها ... والليل أجمعه حتى بدا الأحد

وفى الثلاثاء أعملنا المطى بها ... صهباء ماقرعتها بالمزاج يد

والأربعاء كسرنا حد شرته ... والكأس يضحك فى تيجانها الزبد

وقوله : (٧٩)

ظلت حميا الكأس تبسطنا ... حتى تهتك بيننا الستر

فى مجلس ضحك السرور به ... عن ناجذيه وحلت الخمر

وقوله : (٨٠)

أكل الدهر ماتجسم منها ... وتبقي لبابها الكنونا

ثم شجت فاستضحكت عن لآل ... لو تجمعن فى يد لاقتنينا

وقوله : (٨١)

كان الشباب مطية الجهل ... ومحسن الضحكات والهزل

وقوله : (٨٢)

أشرب من ريقته مرة ... ومرة أشرب من فضلته

فى مجلس يضحك تفاحه ... من الرياحين إلي حضرته

ولعريب صوت هو : (٨٣)

ضحك الزمان وأشرقت

وفى موضوع الوصف جمع الشعراء بين الضحك والبكاء ، يقول على بن الجهم :(٨٤)

الورد يضحك والأوتار تصطخب ... والناى يندب أشجانا وينتحب

ويقول الحسين بن مطير : (٨٥)

أين أهل القباب بالدهناء ... أين جيراننا على الأحساء

فارقونا والأرض ملبسة نور ... الأقاحى يجاد بالأنواء

كل يوم بأفحوان جديد ... تضحك الأرض من بكاء السماء(٨٦)

وضحكت الأرض أى أخرجت نباتها وزهرتها

ويقول الحسين بن مطير يصف سحابة (٨٧)

مستضحك بلوامع مستعبر ... بمدامع لم تمرها الأقذاء

فله بلا حزن ولا بمسرة ... ضحك يراوح بينه وبكاء

ويقول دعبل بن على : (٨٨)

لاتعجبى ياسلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

ويقال إن البيت السابق سرقه دعبل من مسلم بن الوليد الذى يقول : (٨٩)

مستعبر يبكى على دمنه ... ورأسه يضحك فيه المشيب

ويقول على بن جبلة الأعمى (٩٠)

ذاد ورد الغى عن صدره ... وارعوى واللهو من وطره

وأبت إلا البكاء له ... ضحكات الشيب فى شعره

ويقول ابن أبى عيينة يصف قصرا :(٩١)

كأن قصور القوم ينظرون حوله ... إلى ملك مسوف على منبر الملك

يدل عليها مستطيلا بظله ... فيضحك منها وهى مطرقة تبكى

ويقول ابن ابن مفرغ :(٩٢)

أصرمت حبلك من أمامه ... من بعد أيام برامه

فالريح تبكى شجوها ... والبرق يضحك فى الغمامة

وأنشد ديك الجن يعزى جعفر بن على الهاشمى ، فيذكر ضحك الأرض وبكاء السماء ، ويقول : (٩٣)

وحنت المزن على قبره ... بعارض مجوته محفل

غبث ترى الأرض على وبله ... تضحك إلا أنه يهمل

ثم تأتى صور التعبير عن الابتسام فى موضوع الوصف تاليه للضحك ، يقول حسين بن الضحاك يصف سفينة فى نهر القاطول الذى كان الرشيد قد حفره ، وهو مقتطع من نهر دجلة .

غدوت على الوحش مغترة ... روائع فى نورها المنتظم
ورحت عليها وأسرابها ... تحوم بأكنافها تبتسم

ويقول عبد الصمد بن المعذل فى وصف بستان له : (٩٥)

أرى فيه مثل مدارى الظباء ... تظل لأطلائها حانية
ونور أقاح شتيت النبات ... كما ابتسمت عجبا غانية

ويقول أبو نواس مخاطبا أحمد بن أبى صالح : (٩٦)

ناديته بعد ما مال النجوم وقد ... صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات
فقلت والليل يجلوه الصباح كما ... جلا التبسم عن غر الثنيات
ياأحمد المرتجى فى كل نائبة ... فم سيدى نعص جبار السموات

ويقول أبو نواس أيضا : (٩٧)

اسقنا إن يومنا يوم رام ... ولرام فضل على الأيام
من شراب ألذ من نظر المعـ ... ـشوق فى وجه عاشق بابتسام

وقال على بن يحيى : (٩٨)

بأبى والله من طرقا ... كابتسام البرق إذ خفقا
زادنى شوقا بزورته ... وملا قلبى به حرقا

ويقول الشاعر : (٩٩)

وما روضة جاد الربيع بهطله ... عليها فرواها ورقت غصونها
وهبت عليها الريح حتى تبسمت ... وحتى بدت فوق الغصون عيونها
بأحسن منها إذ بدت وسط مجلس ... وفى يدها عود فصيح يزينها

ويذكر حسين بن الضحاك الضحك والابتسام في وصفه للخمر يقول : (١٠٠)

وقلت هيا ياصاحبى ونبـ ... ـهت أبانا فهب كالزلم
فاستنها كالشهاب ضاحكة ... عن بارق فى الإناء مبتسم

أما ذكر القهقهة فلم ترد إلا فى موضوع الوصف فى نصف بيت لشاعر بصرى وذلك فى قوله : (١٠١)

قهقه فى رأسك القتير

٣ - المديح

مما تقدم نستطيع أن نستنتج أن الشاعر العربي لم يكن يكثر فى مديحه من ذكر ضحك الممدوح وابتسامه ، إذ كانوا يفضلون فى ممدوحيهم أن يكونوا صورة مجسدة للقوة والجلد وضبط النفس وإخفاء المشاعر وكبتها وهذه كلها صفات لا تتفق مع انبساط الوجه وإظهار الفرح ، ولا يعنى هذا أن العرب كانوا لايضحكون ، فإن أخبار الخلفاء والأمراء ومن عاشرهم وجاورهم تشير إلى قدر هائل من حياة الصخب والمجون واللهو والقصف ، وتقرأ في الأغانى تعبيرات كثيرة مثل : فأخذ يصفق بيديه وقدميه من فرط السرور(١٠٢) ، أو فضحك حتى استلقى على قفاه ، وما إلى ذلك من العبارات النثرية العديدة التى تدل على أنهم كانوا يضحكون فى مجالسهم الخاصة والتى لايحبون أن يطلع عليها أحد ، ومن أمثلة هذه العبارات :

" قال : فضحك أبى والله حتى سقط وجعل ناهض يعجب من ضحكه " (١٠٣)
وأيضا : " فضحك عبد الملك حتي استلقى " (١٠٤)

والأمثلة كثيرة ، ولكنهم كانوا لا يحبون أن يمتدحهم أحد وهم على حالاتهم تلك من استغراق فى الضحك واللهو ، ولذلك فإننا سنجد أن أكثر الشواهد الشعرية فى موضوع المديح لا تذكر ضحك الممدوح ، ولا ابتسامه مباشرة بل تلجأ إلى الكناية ، وصور التعبير المجازية التى توحى ولا تصرح ، فأغلبها صور لضحك البرق والزهور وسائر مظاهر الطبيعة التى تصادف وجود الممدوح فى إطارها ، فهى مستبشرة به وفرحة بنصره ، أو مبتهجة لمناسبة سعيدة حدثت له ، أو يصور الشاعر إقبال الدنيا على الممدوح مبتسمة فرحة ، وهو مقبل عليها ، أو معرض عنها .

ففى أبيات لأبى العتاهية يهنىء فيها الهادى بولد وُلِدَ له فى أول يوم ولى فيه الخلافة يقول : (١٠٥) .

فاكتست الأرض به بهجة ... واستبشر الملك بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحه ... علت بها ذروة أعواده

وقال على بن جبلة يمدح أبا دلف :(١٠٦)

دع جدا قحطان أو مضر ... فى يمانيه وفى مضره
وامتدح من وائل رجلا ... عصر الآفاق من عصره

مستهـــل عـــن مواهبـــــه كابتســـام الروض عـن زهـــره

وقال كثير مادحا عمر بن عبد العزيز:(١٠٧)

لقـد لبســت لبس الهلوك ثيابهـا وأبـــدت لك الدنيا بكـف ومعصـم
وتـومض أحيـــانا بعـين مريضـه وتبســم عن مثـل الجمـان المنظم
فأعـــرضت عنهـــا مشمئزا كأنمـــا سقتـــك مدوفـا من ســمام وعلقم

ويمدح أشجع بن عمرو السلمى هارون الرشيد عند عودته من الحج ، وقد مطر الناس يوم قدومه يقول : (١٠٨)

إن يمـــن الإمـــام لمـــا أتانـــا جلـــب الغيث من متـون الغمـام
فابتســام النبـــات فى أثـر الغيث بنـــواره كســـرج الظـــلام

وعلى بن جبلة الأعمى يمدح القاسم بن عيسى قائلا : (١٠٩)

ملك تنـــــدى أناملـــــه كانبـــلاج النـــؤ مـــن مـــطره
مستهـــل عـــن مواهبـــــه كابتسـام الروض عن زهرة (١١٠)

أما ضحك الطبيعة فى إطار حبها للمدوح ، أو إغرائها له ، أو فرحتها به ، فيبدو في قول أبى نواس فى مديحه للأمين : (١١١)

تضحـــك الدنيـــا إلى ملـك قـــام بالأســـلام والســـنن

وكقول ابن مناذر يمدح عبد المجيد بن عبد الوهاب : (١١٢)

كأن شـــمس الضحـــى وبـــدر الدجـــى عليـــه معلقـــان
نيـــطا معـــا فـــوق حاجبيه والبـــدر والشـمس يضحكـــان

ويمدح أبو العتاهية هارون الرشيد بقوله : (١١٣)

وزحـف له تحكـى البـروق سيوفه وتحكى الرعود القاصفـات حوافره
اذا حميـت شـمس النهـــار تضاحكت إلى الشـمس فيـه بيضـة ومفافرة

أما ابتسام الممدوح فقد تحفظ الشعراء كثيرا عند تعبيرهم عنه ، وجاء تعبيرهم عن ضحك الممدوح نادرا وفقا لما قدمناه من أنهم كانوا يفضلون - شعراء وممدوحون - أن يوصفوا بالشجاعة والقوة والجهامـة والصـرامة ، وكلها صـفات لا تتفـق مع الشخصية التى تميل إلى المرح .

يقول ناهض بن ثومة مادحا بنى تميم :(١١٤)

هم الرأس المقدم من تميم ... وغاربها وأوفاها سناما
إذا ما غاب نجم آب نجم ... أغر ترى لطلعته ابتساما

ويقول حزين بن سليمان الديلى :(١١٥)

من كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم

والأبيات السابقة نسبت الى الفرزدق يمدح بها عليا بن الحسين بن على بن أبى طالب : (١١٦)

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى المكارم هذا ينتهى الكرم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... ما يكلم إلا حين يبتسم

ويقول حمزة بن بيض : (١١٧)

تقول لى والعيون هاجعة ... أقم علينا يوما فلم أقم
قالت : فأى الوجوه ؟ قلت لها ... لأى وجه إلا إلى الحكم
متى يقل حاجبا سرادقه ... هذا ابن بيض بالباب يبتسم

ويمدح مسلم بن الوليد يزيد بن مزيد ذاكرا الافترار والتبسم ، يقول : (١١٨)

يفتر عند افترار الحرب مبتسما ... إذا تغير وجه الفارس البطل

وقد يستخدم الشاعر ماينوب عن المفعول المطلق للتعبير عن تغير درجة حالة الموصوف ، يقول زياد الأعجم : (١١٩) .

سألناه الجزيل فما تأبى ... فأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا ... فأحسن ثم عدت له فعادا
مرارا مادنوت إليه إلا ... تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

وذكر ضحك الممدوح كان أكثر ندرة من الابتسام ، يقول الفرزدق : (١٢٠)

أيضحك الناس أن أضحكت سيدهم ... خليفة الله يستسقى به المطر

ويقول المؤمل بن أميل يمدح المهدى: (١٢١)

إلى الشمس شمس بنى هاشم ... وما الشمس كالبدر أو كالهلال
ويضحكه أن يدوم السؤال ... ويتلف فى ضحكه كل مال

وكما قرن الشعراء الضحك بالبكاء في الغزل فقد قرنوه بالعبوس في المديح ، يقول على بن جبلة في مديح حميد الطوسى : (١٢٢)

ولو ملك الدنيا لما كان سائل ... ولا اعتام فيها صاحب فضل صاحب
لوضحكة تستغرق المال بالندى ... على عبسه تشجى القنا بالترائب

٤ - الهجاء والسخرية

إذا كان العرب قد تحفظوا فى التعبير عن الضحك فلا عجب أن يصبح الضحك مدعاة للهجاء والسخرية ، فمن البدهى أن يضحك العربى هاجيا أو ساخرا من غيره أو من نفسه ، أو أن يسخر من الضاحك أو يهجوه لأنه يجعل من نفسه مضحكا للآخرين :

يقول جعيفران يهجو نفسه :(١٢٣)

ماجعفر لأبيه ... ولا له بشبيه
أضحى لقوم كثير ... فكلهم يدعيه
هذا يقول بنى ... وذا يخصام فيه
والأم تضحك منهم ... لعلمها بأبيه

ولم يكن مضحك الخلفاء والقوم فى مجالسهم يحظى باحترام وتقدير الناس ، بل يعاب ويهجى من أجل ذلك ، يقول حارثة بن بدر هاجيا سعد الرابية أحد بنى عمرو بن يربوع بن حنظلة ، وكان يضحك ابن زياد ويلهيه : (١٢٤)

لا ترج منى يابن سعد هوادة ... ولا صحبة ماأرزمت أم حائل
أعند الأمير ابن الأمير تعيبنى ... وأنت ابن عمرو مضحك فى القبائل

ويهجو الأقيشر أعرابيا من بنى تميم كان قد هجاه ، يقول : (١٢٥)

أيهزأ بى العبد الهجيمى ضله ... ومثلى رمى ذا التدرإ المتضلل
بداهية دهياء لايستطيعها ... شماريخ من أركان سلمى ويذبل
وبالله لولا أن حلمى زاجرى ... تركت تميما ضحكة كل محفل

والضُحكة بتسكين الحاء هو الذى يُضْحَك منه : (١٢٦)

وفى أبيات طريفة لمالك بن الريب يهجو فيها ذئبا أراد به شرا فقتله يقول : (١٢٧)

أذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة ... تفادى بك الركبان شرقا إلى غرب
فأنت وإن كنت الجرىء جنانه ... منيت بضرغام من الأسد الغلب

ومن السخرية قول حارثة بن بدر يصف شربه الخمر ، يقول : (١٢٨)

حساها كمستدمى الغزال عتيقة ... إذا شعشعت بالماء طيبة النشر
أقام عليها دهره كل ليلة ... يشافهها حتى يرى وضح الفجر
فأصبح ميتا ميتة الكلب ضحكة ... لأصاحبه حتى يدهده فى القبر

ويقول أبو العبر - وكان المتوكل يرميه فى البركة ثم يخرجه بالشبكة مثل السمك : (١٣٠)

ويأمر بى الملك ... فيطرحنى فى البرك
ويصطادنى بالشبك ... كأنى من السمك
ويضحك كك كك ككك ... ككك كك ككك كك ككك

وقال عبيد الله بن عبد الله يهجو عراك بن مالك وأبا بكر بن حزم : (١٣١)

فمسا تراب الأرض منها خلقتما ... ومنها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلما ... فما خشى الإنسان شرا من الكبر
فلوشئت أن ألفى عدوا وطاعنا ... لألفيته أو قال عندى فى السر
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ... ضحكت له حتى يلج ويستشرى

ويسخر على بن الجهم من أحمد بن أبى دؤاد فيصف ضحكة قائلا : (١٣٢)

وإذا تبسم ضاحكا شبهته ... شرقا تعجل شربه مردودا

ويقول معن بن أوس ساخرا من نفسه ، وذاكرا امرأته ثور : (١٣٣)

لو شهدتنى وجوادى ثور ... والرأس فيه ميل ومور
لضحكت حتى يميل الكور

أما عبد الرحمن بن حسان فإنه يهجو بن الحكم ويسخر منه ، يقول : (١٣٤)

إنى لمتمسى حتى يبين لكم ... فيكم متى كنتم للناس أربابا
فارقوا على ظلعكم ثم انظروا وسلوا ... عنا وعنكم قد يم العلم نسابا
فسوف يضحك أو تعتاده ذكر ... يابؤس للدهر للإنسان ريابا

ويقول أبو الطفيل عامر بن واثلة ساخرا مما تحمله الليالى من خطوب عجيبة تضحك وتبكى : (١٣٥)

لادردر الليالى كيف تضحكنا ... منها خطوب أعاجيب وتبكينا

ومن الضحك الساخر قول عبد يغوث بن صلاءة الحارثى : (١٣٦)

فيما راكبا إما عرضت فبلغن ... ندامای من نجران أن لا تلاقيا
أبا كرب والايهمين كليهما ... وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا
وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم تر قبلى أسيرا يمانيا

٥ - الرثاء

إن أكثر ماعبر عنه الشعراء في موضوع الرثاء كان اقتران الضحك بالبكاء فهما من التضاد المتدرج ، فلا يقابل البكاء بالابتسام ولا بغيره من درجات الضحك ، ولذلك فإن الشواهد الشعرية بالأغانى تشير إلي هذا المعنى ، يقول ديك الجن راثيا فتاة قتلها زوجها حتى لاتقع أسيرة فى أيدى أعدائه ، وذلك عندما أيقن بموته . فقال الشاعر راثيا :(١٣٧).

وإنى لأحسب ريب الزمان ... يتركنى جسدا باليا
سأشكر ذلك لاناسيا ... جميل الصفاء ولا قاليا
وقد كنت أنشره ضاحكا ... فقد صرت أنشره باكيا

ويقول فى رثائه لجعفر بن على الهاشمى:(١٣٨)

نزلنا على حكم الزمان وأمره ... وهل يقبل النصف الألد المشاغب
وتضحك سن المرء والقلب موجع ... ويرضى الفتى عن دهره وهو عائب

ويرثى مسلم بن الوليد الفضل بن سهل ،ويقول :(١٣٩)

عفت بعدك الأيام ، لا بل تبدلت ... وكن كأعياد فعدن مباكيا
فلم أر إلا قبل موتك ضاحكا ... ولم أر إلا بعد يومك باكيا

ويقول البحترى يرثى سليمان بن وهب : (١٤٠)

إن الرزية فى الفقيد فإن هفا ... جزع بلبك فالرزية فيكما
لوينجلى لك ذخرها من نكبة ... جلل لأضحكك الذى يبكيكا

ولم يرد الضحك - فى الرثاء - غير مقترن بالبكاء إلا فى بيت واحد ، لأن الشاعر كان يذكر يوم القيامة والذى يري فيه المرئى وقد افتر ضاحكا من السرور عندما قرأ صحيفته يوم الحساب ويقول الشاعر : (١٤١)

فلقيت فى يمنى يديك صحيفة ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
يسر الذى فيها إذا مابدا له ... ويفتر منها ضاحكا وهو واقف

٦ - الفخر

من المنطقى أن يقل ذكر الضحك ويندر فى موضوع الفخر كما وجدنا ندرته فى المديح .
يقول مالك بن أسماء بن خارجة : (١٤٢)

وندمان صدق قال لى بعد هدأة ... من الليل : قم نشرب فقلت له : مهلا
فقال : أبخلا ياابن أسماء هاكها ... كميتا كريح المسك تزدهف العقلا
فتابعته فيما أراد ولم أكن ... بخيلا على الندمان أو شكسا وغلا
ولكننى جلد القوى أبذل الندى ... وأشرب ماأعطى ولا أقبل العذلا
ضحوك إذا مادبت الكأس فى الفتى ... وغيره سكر وإن أكثر الجهلا

ويفخر النمر بن تولب لأنه تحمل دية عن صديقه : (١٤٣)

تبسم ضاحكا لما رآنى ... وأصحابى لدى عن التمام

وفى أبيات لحسان بن ثابت يقول : (١٤٤)

قالت له يوما تخاطبه ... ربا الروادف غادة الصلب
اما المروءة والوسامة أو ... حشم الرجال فقد بدا حسبى
فوددت أنك لو تخبرنا ... من والداك ومنصب الشعب
فضحكت ثم رفعت متصلا ... صوتى كرفع المنطق الشعب

وقد ورد الضحك بمعان مجازية ، فقد قال ديك الجن : (١٤٥)

وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجبا ولكنى بكيت لخصرها

فأحيانا يفسر الضحك على معنى العجب ، وبه فسر بعضهم قوله تعالى :
فضحكت فبشرناها باسحق (١٤٦)
ويقول الشنفرى الأزدى : (١٤٧)

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب لها يستهل (١٤٨)

وهكذا نرى أن معاجم اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الألفاظ التى تدل علي الضحك ودرجاته علوا وانخفاضا ، ولكن العرب لم يستخدموا أكثر هذه الألفاظ لأن أغلبها لايتفق مع الموروث الثقافى للشخصية العربية ، وإن المحك الأساسى لأية لغة هو الممارسة العملية ، والحاجة الاجتماعية ، ولم يكن العرب بحاجة إلي استخدام الألفاظ الدالة على درجات الضحك المرتفعة لازدرائهم لهذه الحالات ، ونفورهم من أن تسجل عليهم لحظات الانبساط والاستسلام للعواطف والأحاسيس الانسانية الطبيعية ، كما اكتفوا بلفظتى التبسم والاختزار واستغنوا بها عن بقية الألفاظ الدالة على الضحك الحسن وذلك لقرب دلالة هذه الألفاظ من بعضها البعض .

ولم يقتصر الأمر على شواهد الأغانى فحسب ولكن دواوين الشعراء القدامى شهدت تجنب الشعراء التعبير عن مشاعر الفرح وذكر الضحك ودرجاته إلا فى القليل النادر فعلي سبيل المثال لم يذكر النابغة الذبيانى الضحك والتبسم في ديوانه سوى فى بيت واحد وهو قوله (١٤٩) .

وإن ضحكت للعصم ظلت روانيا إليها وإن تبسم إلي المزن تبرق

كما ذكر الكركرة ولكن ليس بمعناها الذى ذكره الثعالبى كدرجة من درجات الضحك المرتفع ولكن بمعناها اللغوى أى تردد الصوت . يقول : (١٥٠)

تكركره ريح يجور بصوتها وتعد له أخري شمال فيهتدى

ويعد عنترة بن شداد من أكثر الشعراء ذكرا للتبسم والضحك وقد يرجع ذلك إلى شخصية عنترة ومكوناته الوراثية فلم يكن عربيا خالصا فأمه لم تكن عربية ، كما أن التاريخ احتفظ لنا بصورة لعنترة الفارس تجمع بين الشجاعة والدماثة وبين القوة والرقة ، وهذه الأبيات التى تتحدث عن الابتسام والضحك نجدها فى ديوانه (١٥١) أكثر نسبيا من غيره من الشعراء . كما ذكر القهقهة مرة واحدة وهو يصف ارتطام قنانى الخمر بعضها ببعض فيقول : (١٥٢)

فرشدى لايغيبه مدام ولا أصغى لقهقهة القنانى

ولا نستطيع أن نرد تحفظ العرب بالنسبة للتعبير عن الفرح إلي قسوة الحياة التى عاشوها بالصحراء ذات المناخ القاسى فحسب لأن العرب بعد الإسلام ، وبعد الفتوحات الكبيرة ، والاندماج فى الحضارات المختلفة لم يتغيروا ، وظلت علاقاتهم بتلك الحضارات علاقات هامشية ظاهرية لم تصل إلى الأعماق - فيما يتعلق بموضوع الضحك ودرجاته - وهذا صريع الغوانى مسلم بن الوليد الشاعر العباسى الذى غنى للمرأة وللخمر كثيرا نجد

ديوانه لايتعدى هذه الألفاظ الثلاثة التبسم والضحك والافترار (١٥٣) ويبدو أن الأمر وثيق الصلة بالچينات الوراثية ، وإن كان التثبت من هذا يحتاج إلى أبحاث عديدة ليس فى المجال الأدبى فحسب ، ولكن فى كافة نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية ، والبيولوجية والفسيولوجية قديما وحديثا . ولم يكن من هم هذا البحث أن يتتبع تلك الظاهرة إلا فى مجال واحد كان من المتصور أنه سيعطى فكرة طيبة عن جانب من أهم جوانب الشخصية العربية ، وكان كتاب الأغانى - للأسباب التى ذكرت فى بداية البحث - مادة علمية وافية ، وكافية للبحث . وجاءت النتيجة التي وصل إليها وهى أن العرب يميلون إلى الجهامة والعبوس ، وأن الألفاظ التى استخدموها للتعبير عن الضحك ودرجاته فى شواهدهم القليلة للغاية لم تخرج عن ألفاظ ثلاثة وهى : التبسم والضحك والافترار .

الهوامش والتعليقات

(١) فقه اللغة وسر العربية لأبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى . المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، مطبعة الاستقامة ص ١٧٠ .

(٢) لسان العرب حـ ٤ ص ٢٥٥٧ مادة ضحك ابن منظور - دار المعارف - تحقيق : عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى.

(٣) السابق حـ١ ص ٢٨٦ مادة بسم

(٤) السابق .

(٥) السابق حـ٥ ص ٣٣٧٦ مادة فتر

(٦) السابق حـ ٥ ص ٣٩٢٠ مادة كلل

(٧) السابق حـ ٥ ص ٣٢٢٧ مادة غرب

(٨) السابق (٩) السابق حـ ٥ ص ٣٧٦٥ مادة قهقه

(١٠) السابق حـ٥ ص ٣٥٨٢ مادة قرر ، وحـ ٥ ص ٣٨٥٢ مادة كرر

(١١) السابق حـ٤ ص ٢٦٤٧ مادة طخخ

(١٢) السابق حـ٣ ص١٨٧٨ مادة زهرج

(١٣) السابق حـ٥ ص٣٨١٨ مادة كتت

(١٤) السابق حـ٢ ص١٢٨١ مادة خنن

(١٥) " الاهلاس ضحك فيه فتور ، وأهلس فى الضحك أخفاه " لسان العرب حـ٦ص٤٦٨٤ مادة هلس ، وأصل المهلس الضعيف ، فكأنه قال أنه ضحك ضعيف ، ولكن الثعالبى فى فقه اللغة جعل الاهلاس فى مرتبة بعد التبسم ، والتبسم تظهر معه الأسنان ، ولذلك فانه من المنطقى أن تظهر الأسنان عند الاهلاس حتى ولو لم تشر معاجم اللغة إلى ذلك صراحة .

(١٦) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى حـ١ ص١٧٠ وحـ٥ وص ٢١٥ شرح عبد الله على مهنا وسمير جابر ، دار الكتب العلمية ببيروت - طبعة ثانية ١٩٩٢.

(١٧) السابق حـ٤ ص٢٩٠

(١٨) السابق حـ٥ ص٣٠ وحـ٦ ص٣٠١

يسن : يسوك - الضرو : شجر طيب الرائحة يستاك به - العتم : شجر الزيتون

(١٩) السابق حـ١١ ص ١٨٨.

(٢٠) السابق حـ١١ ص٣٢٦

(٢١) السابق حـ١٣ ص٣٠٨ ومابعدها

(٢٢) السابق حـ٢٤ ص١٩٤

(٢٣) السابق حـ٣ ص١٨٢

(٢٤) السابق حـ١١ ص٣٦٨

(٢٥) الأغانى حـ١ ص١٩٧

(٢٦) السابق ص ٢١١

(٢٧) السابق حـ٢ ص ٢٧٣

(٢٨) السابق حـ٥ ص٣٣٠ غناء اسحق بن ابراهيم .

(٢٩) السابق حـ٦ ص٥٦

(٣٠) السابق حـ١٢ ص ١٩٠
(٣١) السابق حـ ١٩ ص٣٠
(٣٢) السابق حـ١٩ ص ٢٤٤
(٣٣) السابق حـ٢٢ص٢٩١
(٣٤) السابق حـ٢٣ص١٩٤
(٣٥) السابق حـ٢٣ ص٤٠ ،٤١
(٣٦) السابق حـ٦ ص٢٤٠
(٣٧) اللمم : صغار الذنوب
(٣٨) الأغانى حـ٦ ص٢٤٩
(٣٩) السابق حـ٧ ص ٢٠٢
(٤٠) الأغانى حـ١٢ ص٢٢٠
(٤١) السابق حـ ٩ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣
(٤٢) السابق حـ١٣ ص٣٣٨
(٤٣) السابق حـ١٤ ص١٢٦
(٤٤) السابق حـ١٦ ص٣٧٦
(٤٥) السابق حـ١٧ ص١٣٣
(٤٦) السابق حـ٢١ ص ٥٦ ، حـ٢٣ص٢٠٧
(٤٧) السابق حـ٢٣ ص١٩٠
(٤٨) السابق حـ٨ ص١٥٨
(٤٩) السابق حـ٢ ص١٩
(٥٠) السابق حـ٣ ص ٣٣١
(٥١) السابق حـ٦ ص٤٤
(٥٢) السابق حـ ٦ ص ٦٣
(٥٣) السابق حـ ٧ ص ١٨٠
(٥٤) السابق حـ١٠ص١٨٢
(٥٥) الأغانى حـ٢٢ ص ١٣٠
(٥٦) السابق حـ٢٣ ص ٢٠٣
(٥٧) السابق حـ١ ص ١٥٤
(٥٨) السابق حـ١ ص١٩٣
(٥٩) ١٩ ك النمل ٢٧-٤١٨ المعجم لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى ، مؤسسة جمال للنشر - بيروت - لبنان
(٦٠) الأغانى حـ٦ ص٢١٨
(٦١) السابق حـ١٢ ص٢١٧ ، ١٤٨
(٦٢) السابق حـ٣ ص ٢٥٩
(٦٣) السابق حـ٥ ص ٢٠٠ وأيضا ص٢٤ ،٩٧ ، ١٠٧
(٦٤) السابق حـ٨ ص ٣٧٢
(٦٥) السابق حـ ٨ ص ٣٧٢
(٦٦) السابق حـ ١٢ ص ١٨١
(٦٧) السابق حـ ٢٣ ص٥٠
(٦٨) السابق حـ٥ ص١٢٧
(٦٩) الاغانى حـ ٦ ص ٢٤٣
(٧٠) السابق ص ٢٤ ص ١٩٤
(٧١) السابق حـ ٧ص ٢١٥
(٧٢) السابق حـ١٥ص٥٢ و حـ٢٠ ص٥٠
(٧٣) السابق حـ١٩ ص٢٦١
(٧٤) السابق حـ١٩ ص ٢٤٧
(٧٥) السابق حـ٢٠ ص ٢٩٢
(٧٦) ضحكات كل شى خياره لسان العرب حـ٤ ص ٢٥٥٧ ومابعدها
(٧٧) الأغانى حـ ٢٠ ص٧١
(٧٨) الملحق حـ٢٥ص٧٦ ، ٧٧
(٧٩)السابق ص ١٧٤.

(٨٠)السابق ص ١٩٧ .
(٨١) السابق ص ٢٢٩
(٨٢) السابق ص ١٨٨
(٨٣) السابق حـ٢١ ص٩٦
(٨٤) الأغانى حـ١٠ ص ٢٦٩
(٨٥) السابق حـ١٦ ص ٢٥ وحـ ٢٠ ص١٤٠
(٨٦) هذا البيت نسب إلى أبى نواس حـ٢٥ ص ٢٤٠
(٨٧)الأغانى حـ١٦ ص٣٢
(٨٨) السابق حـ١٦ ص٤٣٤ وحـ ١٩ ص ٩١ وحـ ١٦ ص ٢٥
(٨٩) السابق حـ ٢٠ ص ١٣٨ ، ١٣٩
(٩٠) السابق حـ ٢٠ ص ٢٥ ، ٢٦
(٩١) السابق حـ٢٠ ص١٠١
(٩٢) السابق حـ١٨ ص ٣٦٩
(٩٣) النسابق حـ١٤ ص ٦٦
(٩٤) السابق ص ٢٣١
(٩٥) السابق حـ١٣ ص ٢٦٣
(٩٦) السابق حـ٢٥ ص١٠٣
(٩٧) السابق ص ٢٣١
(٩٨) السابق حـ٨ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣
(٩٩) الأغانى حـ١٨ ص ٣٦١
(١٠٠) السابق حـ٧ ص ٢٣٨
(١٠١) السابق حـ٢٠ ص ١٣٨ والقتير هو الشيب
(١٠٢) السابق حـ١ أخبار معبد
(١٠٣) السابق حـ١٣ ص٢٠٢وحـ ١٢ ص١٣٦
(١٠٤) السابق حـ١٦ ص ٢٠١
(١٠٥) السابق حـ٤ ص ٥٩
(١٠٦) السابق حـ٨ ص٢٦٣
(١٠٧) السابق حـ٩ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧
(١٠٨) السابق حـ١٨ ص ٢٥٦
(١٠٩) السابق حـ٢٠ ص ٢٦
(١١٠) انظر الأغانى حـ٨ ص ٢٦٣
(١١١) الأغانى حـ ٢٥ ص ٩١
(١١٢) السابق حـ١٨ ص١٨٣
(١١٣) السابق حـ٤ ص ١٨
(١١٤) الأغانى حـ١٣ ص ٢٠٦
(١١٥) السابق حـ١٥ ص ٣١٢ وتنسب هذه الابيات للفرزدق حـ٢١ ص٣٧٩
(١١٦) السابق حـ٢١ ص ٣٧٩
(١١٧) السابق حـ١٦ ص٢٢٧
(١١٨) السابق حـ١٢ ص١١٨
(١١٩) السابق حـ١٥ ص٣٦٩
(١٢٠) السابق حـ ١٥ ص ٣٣٣
(١٢١) السابق حـ٢٢ ص ٢٥١
(١٢٢) السابق حـ ٢٠ ص٣٧
(١٢٣) السابق حـ ٢٠ ص ٢٠٩
(١٢٤) السابق حـ٨ ص ٤٠٨
(١٢٥) السابق حـ١١ ص ٢٦٠
(١٢٦) لسان العرب حـ٤ ص٢٥٥٧ ومابعدها
(١٢٧) الأغانى حـ ٢٢ ص ٢٩٦
(١٢٨) السابق حـ٨ ص ٤٠٣
(١٢٩) الأغانى حـ١٠ ص٣١٣

(١٣٠) السابق حـ٢٣ ص ٢١٠

(١٣١) السابق حـ ٩ ص ١٦٩ وكان عراك بن مالك قد ولى قضاء المدينة وتولى أبوبكر بن حزم إمرتها ، وكانا يجالسان عبيد الله بن عبد الله فى المدينة زمانا ، ثم إنهما بعد تولى أمر القضاء والإمارة كانا يمران على عبيد الله فلايسلمان ، وكان ضريرا فهجاهما .

(١٣٢) الأغاني حـ ١٠ ص٢٦٤

(١٣٣) السابق حـ١٢ ص ٧٣

(١٣٤) السابق حـ ١٥ ص ١١٢

(١٣٥) السابق حـ١٥ ص١٤٨

(١٣٦) حـ١٦ ص ٣٥٣

(١٣٧) السابق حـ ١٤ص ٦١

(١٣٨) السابق حـ ١٤ ص ٦٧

(١٣٩) السابق حـ١٩ ص ٦٢

(١٤٠) السابق حـ ٢٣ ص ١١٦٣

(١٤١) السابق حـ ٥ ص ٤٤٨

(١٤٢) الأغانى حـ ١٧ ص ٢٤٠

(١٤٣) السابق حـ٢٢ ص ٢٨٣

(١٤٤) السابق حـ ٣ ص ١٩ وكان حسان قد مر بنسوة منهن زوجته عمرة ، وكان طلقها فأرادت أن تسخر منه ، فطلبت من واحدة من النساء أن تتعرض له وتسأله عن أصله ونسبه وأخواله فقال هذه الأبيات مفاخرا.

(١٤٥) الأغانى حـ ١١٤ ص ٥٦

(١٤٦) لسان العرب حـ٤ ص٢٥٥٧ ومابعدها

(١٤٧) الأغانى حـ ٦ ص ٩٦

(١٤٨) من معانى الضحك أيضا الحيض ، ففى لسان العرب حـ ٤ ص ٢٥٥٧ وما بعدها :
ضحكت أنى حاضت ، وهذا المعنى يتفق مع مايعتقده العرب من أن الضبع إذا مرت بالقتيل اشتهته فيتعرض لها الذئب حينئذ فتلد السمع وهو دابه لايولد له مثل البغل

(١٤٩) ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف الطبعة الثانية ص ١٨١

(١٥٠) النسابق ص ٢١٢ .

(١٥١) ديوان عنترة تقديم وشرح محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة القاهرة ، طبعة أولى ١٩٦٩ الصفحات ٢١ - ٤٦ - ٩٢ - ٩٨ - ٢٤٥ - ٢٥٧ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ١٧٤ .

(١٥٢) السابق ١٢٧

(١٥٣) انظر ديوان صريع الغوانى تحقيق د. سامى الدهان - دار المعارف طبعة ثالثة صفحات : ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣١٧ - ٣٢٤ - ٣٣٢ - ٣٤٠ - ٣٤٦ - ٩ - ٤١ - ٦٤ - ٨١ - ١٣٢ - ١٧٨ - ٢١٤ - ٢٢٦ - ٢٢٨ - ٢٤٥ ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٥ - ٢٦١ - ٢٦٦ - ٢٦٧ .